نظريات التطور: فرضية أم خرافة أم إيديولوجية أم حقيقة علمية؟

حافظ لصفر

بكالوريوس في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع

ماجستير في ادارة الموارد البشرية وماجستير في الادارة التربوية وماجستير في القيادة المجتمعية

باحث دكتوراه في الفلسفة

١- منطلقات فرضية التطور وجذورها وخلفياتها الفلسفية والاجتماعية والسياسية المؤسسة لها

ليست فكرة التطور وليدة العصر الحديث، وإنما ترجع إلى الفكر الإغريقي مع فلاسفة ما قبل سقراط من خلال معالجتهم للظواهر الكسمولوجية بطريقة تأملية لمفهومي "الأصل والمبدأ"، وإرجاع أصله إلى عنصر أو عدة عناصر طبيعية، حيث تصور أنكسمندر (٦١١-٥٤٧ ق.م)، بما يزيد عن ألفي سنة أن العالم الحي بدأ من الماء، وأن أصل الإنسان كائنات كانت تعيش في قواقع مائية، فلما انحسر البحر، لجأت لليابسة، ومن تم تطورت، وارتقت غريزيا، وتكيفت مع العالم الخارجي، وهذا نجد له أثره في الأساطير السومرية القديمة، لأنهم كانوا يقدسون البحر بدعوى أنه مصدر للحياة، وأن الأسماك حملت بالإنسان حتى اشتدت قوته، ثم خرج لليابسة برمائيا وتطور على هيئته الحالية، حيث أكد قائلا: "أما الأحياء فقد تولدت في الرطوبة بعد التبخر، أي في طين البحر، وهو مزاج من التراب والماء والهواء، فكانت في الأصل سمكا مغطى بقشر شائك حتى إذا ما بلغ بعدها أشده نزح إلى اليبس، وعاش عليه، ونفض عنه القشر، والإنسان لم يوجد أول ما وجد على ما نراه اليوم طفلا عاجزا عن توفير أسباب معاشه، وإلا لكان انقرض، ولكنه منحدر هو أيضا من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع حملته في بطنها زمنا طويلا حتى نمت قواه، وتم تكوينه، فاستطاع أن يقف على اليابسة، وأن يحفظ حياته بنفسه"[1]، فالطرح التطوري قديم وترجع منطلقاته الأولى إلى تأملات فلسفية وجودية حالمة أو تعود إلى الأساطير القديمة التي كانت تقدس ظواهر كونية، وتفسر بها الأشياء والأحداث وأصل الكون.

[1] يوسف كرم "تاريخ الفلسفة اليونانية"، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، طبعة 2012 ص: 28

عملت فرضية التطوريين في مجال البيولوجيا مع داروين، وسلفه الفيلسوف انكسمندر وغيره على إسقاط فكرة التطور العضوي وقابلية الأنواع للتحول إلى أشكال وأنواع جديدة على الحقل الاجتماعي، وأثبت العلم الحديث فداحتها وخطورتها في تغيير مسار علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعي للحياة الاجتماعية للبشر، حيث بين آدم سيدوجويك أستاذ الجيولوجيا بكامبردج (أستاذ داروين)، أنها تهبط بالإنسان إلى حد إفساد وتسميم الينابيع الجيدة للأخلاق، مما دفع داروين إلى تأخير إصدار كتابه أصل الأنواع" ، ونظرا للثورات التي عرفتها أوروبا على كافة الأصعدة الفلاحية والصناعية، وما صاحبها من تحول في كل النظم والعلاقات، وللتغيرات الطارئة في الكتابات الأنثروبولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية تأثرا بأفكار داروين البيولوجية، كالصراع والمنافسة والبقاء للأقوى والأصلح، كظواهر طبيعية أسقطها على الكائنات الحية، وتم تطبيقها على المجتمع البشري، وهذه هي حركة الداروينية الاجتماعية بشقيها "الرأسمالية والاشتراكية" وصولا إلى مفهوم العولمة[1]، وبما أن فرضية التطور تقوم على البقاء للجنس الأقوى والأصلح، فموجهها إيديولوجية وعنصرية، تميز بين الأجناس والأعراق والسلالات البشرية، مما سوغ للمستعمر القيام بإبادات جماعية في حق من سموهم المتوحشين والبدائيين، كالهنود الحمر بأمريكا "إن الله فضلهم واصطفاهم على العالمين وأعطاهم الأرض، وحق تقرير الحياة والموت والرزق لكل من يعيش فوق هذه الأرض، هكذا حمل شعب الله سيف الجلاد المقدس"[2]، ودونية العبيد الأفارقة، هذا التمييز جذوره لاهوتية مسيحية ويهودية "عقيدة شعب الله المختار والمفضل عند الصهاينة. فإيديولوجية الحمائية التي نهجتها السياسات الكولونيالية[3] خير دليل على ذلك باحتلالها لبلدان كثيرة من العالم بمبرر واه وهو حماية الشعوب من جهلها وتخلفها،وبالتالي فالطرح التطوري من خلال فرضية البقاء للأقوى يجد صداه في الاستعماري لاستعباد الأضعف وسرقة خيراته وثرواته، فهذه الفرضية إيديولوجية ممهدة لقتل وإبادة واستغلال الشعوب الفقيرة التي تراها أنها لا تستحق العيش والبقاء،وهذا ما تبلور في قوانين بعض البلدان المستعمرة "إن جميع الرجال البيض في هذه الحكومة الحرة لهم حق التمتع بحقوق مدنية وسياسية متساوية، إن استعباد العرق الإفريقي،كما هو موجود في هذه الدول يعود بالنفع

[1] الدكتور صلاح عثمان "الداروينية والانسان: نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف للإسكندرية - مصر طبعة 2001 ص: 137

[2] منير العكش حق التضحية بالآخر:أمريكا والإبادات الجماعية، رياض الريس للكتب والنشر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2002 ص57

[3] تعني النهج والسياسة الاستعمارية

المتبادل على كل من السند والحر، وهو مرخص له مبرره بشكل كبير من خلال خبرة البشرية والإرادة الموحى بها للخالق القدير،كما تعترف بها جميع الأمم المسيحية"[1]، تظهر إحصائيات أجريت بالولايات المتحدة الأمريكية أن العرق الأبيض لا يختلط مع الأسود الحر، وهذا التمييز رسخته إيديولوجية التطور معتبرة أن الطبيعية انتقت الجنس الأوروبي والأمريكي كأعراق راقية "الجنس الأري، والسامي" والآخرين دونهم، وأطلقوا أوصافا عنصرية على غيرهم مثل: المتوحشين والبدائيين والهمجيين والبربريين...، فمن بين الرسائل التي تبرز العنصرية المبررة بانتقائية التطوريين ما قاله زعيم هنود دواميش سنة ١٨٥٣ ."زعيم واشنطن يقول لي في رسالته أنه يريد أن يشتري بلادنا ويقول لي إنه صديقي، وإنه يكن لي مودة عميقة"[2]، ومن هنا يتبين أن منطلقات الفرضية التطورية جذورها بعيدة تاريخيا (الأساطير السومرية والإغريقية القديمة) وفلسفيا في الفكر البشري (الفلاسفة الطبيعيين أمثال أنكسمندر)،حيث كان أغلب الفلاسفة القدماء ما قبل سقراط ماديين بشكل مدهش في تفسيراتهم للطبيعة وكانت الحياة بالنسبة لهم ظاهرة طبيعية....وفقا لأنكسماندر أن الحياة قد تولدت بداية بوساطة عمليات مادية من وحل البحار... وعلى الأغلب كان متاثرا في هذه الفكرة بقصائد هوميروس التي تعتبر الإنسان مزيجا من الماء والتراب بالإضافة إلى الملاحظات التجريبية أن الجسم مكون من عناصر صلبة وعناصر سائلة"[3]، إلا أن من بلورها في مجال البيولوجيا هو داروين وتبعه أتباعه في مختلف الحقول المعرفية تمهيدا لطرح افتراضي منطلقه وغايته التحكم في خيرات الأرض والشعوب الضعيفة غير القادرة على التكيف مع العالم، ومن ثمة فلا تصلح للتواجد به، ومن يستحق البقاء والهيمنة والاستيلاء على ثروات الأرض هو الجنس الأوروبي والأمريكي والروسي والصهيوني.

إذن نخلص إلى أن فرضية التطوريين غزت بإيديولوجيتها مسارات الفكر البشري، وغيرت مجراه الصحيح بأفكار خرافية وعنصرية استغلالية لاهوتية "المسيحية واليهودية" بادعاء خادع لا أساس له من الدقة العلمية مفاده أن الطبيعة اختارت وأحبت الجنس الراقي لقيادة العالم والهيمنة عليه، ولا قيمة للشعوب المستضعفة، فلا تصلح للبقاء، هذه الأفكار دفعت مالتوس إلى أن يطرح فكرة أن الغذاء لن يكفي الأعداد

---

[1] قانون تكساس الصادر في 02 فبراير 1861

[2] منير العكش حق التضحية بالآخر:أمريكا والإبادات الجماعية، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2002 ص: 163

[3] الدكتور ستيفن ماير "شك داروين: النشوء المفاجئ لحياة الكائنات وحجة التصميم الذكي" ترجمة الدكاترة مؤمن الحسن وموسى إدريس وآخرون، مركز براهين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى 2012ص: 46-47

السكانية المتزايدة على الكوكب، ودعا إلى فكرة تحديد النسل وتحسينه ومنعه معترضا على أن الخالق قادر على تدبير شؤون الكائنات الحية، بما فيها الإنسان على ظهر الكوكب، وما هذه الأفكار الاقتصادية إلا جزء بسيط وامتداد لما دعت إليه الداروينية بجميع أقطابها.

٢ – نظرية التطور علم أم خرافة أم إيديولوجية من منظور الاتجاهات العلمية والفكرية المعاصرة

اعتمدت فرضيات التطور عدة قواعد أساسية، وعلى رأسها التحول الفجائي بالصدفة والتطور التدريجي والتصاعدي للكائنات الحية من كائنات بدائية إلى كائنات متطورة، وفيما يخص الإنسان قدمته على أساس أنه ينحدر من سلالات بشرية، والملفت للنظر هو أن تطور العلوم لم يؤثر على أصحاب فرضيات التطور، ولا يزالون يرددون المبادئ نفسها بصفة عامة[1].

تمت تسمية الانفجار الكمبري نسبة للظهور المفاجئ جيولوجيا للعديد من مخططات الجسم الميتا زوان بين حوالي ٥٣٠ و ٥٢٠ مليون سنة، أي ١٠.٧٪ فقط من مدة السجل الأحفوري للحيوانات، وظهرت جحور أحفورية أكبر وأكثر تفصيلا منذ ما يقرب من ٥٤٣ مليون سنة بداية العصر الكمبري، ثم زادت الأدلة على نشاط الميتا زوان في كل من الأحافير الأثرية والجسمية خلال ١٣ مليون سنة، مما أدى إلى الانفجار، قد تكون جميع الشعب الحية، نشأت نهاية الانفجار الكمبري، فالاختلافات الجزئية تؤدي إلى إحداث أنواع سجل الشعبة التي كانت أقدم من أصول خطوط الجسم الجديدة، فإن توزيعا يشير إلى وجود نظام نمطي واسع ميتا زوان بين النطاق قبل العصر الكمبري، فمن المحتمل أن الكثير من إعادة صياغة الجينوم حدثت خلال العصر الكمبري المبكر[2]، فمع الانفجار الكمبري، ظهرت إذن الكائنات الحية بشكل مفاجئ دون أدنى تطور وتغيير، إنه ظهور مباشر، مع بقاء ثلثي هذه المخلوقات الحية دون تغيير إلى يومنا هذا، كما أن أول كائن حي ظهر في الأرض حوالي ثلاثة مليار وخمسمائة سنة، وهي البكتيريا لم يطرأ عليها أدنى تغيير، وهذا ما أثبته عالم البيولوجيا الجزيئية "ميكائيل دونتون"، بأنها تحتوي على مضادات حيوية نستعملها في عصرنا الحالي منذ ظهورها (في الحفريات) لن تتبدل أو تتطور، وتدعي فرضية التطور أن كل الكائنات الحية انحدرت من سلف واحد مشترك، عاش في الماضي البعيد، ومع مرور

[1] الدكتور محمد بورباب "نقد نظريات التطور "مجلة اعجاز الدولية للبحث والتأمل "العدد السادس ص 19

[2] Jw.valentine ,D. jablonski and DH erwin « fossils , molécules and embryos :new perspectives on the cambarian explosion » développement ,vol126,issue 5851-859 copyright 1999

الزمن تتسبب التغيرات والنقلات التطورية في بروز أنواع جديدة، وهي فرضية خدعت العقل البشري، لأنها إيديولوجية وخرافة ضللته ردحا من الزمن، وجاءت مضادة للجبلة الطبيعية الخلقية للمخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى، إنه المهندس الصانع المبدع لهذه الأنواع كلها، وأنها مختلفة جينيا، وليس لها سلف مشترك ولو في حالة منها، مما زرع الشك في عقول وبعض متبعي العقائد السماوية، وأكد كلاوس دوز على فشل فرضية التطور في قوله: "إن النظرية الحالية عبارة عن مخطط للجهل، وهو لا يقدم أي تبصرات جديدة حول العمليات التطورية، ومن المرجح أن هذا الجهل سيمكث"[1]، فادعاء فرضية التطور اقتسام الأصل المشترك لجميع الكائنات الحية خرافة وتضليل إلحادي أرادت من ورائه أن تخدر العقل البشري الفطري الذي يؤمن بجبلته أن للكون خالق غير متناهي،كما توصل إليه فلاسفة الاغريق القدامى[2]، وتتصور خرافة التطوريين مثلا: أن هناك قاسما مشتركا في الأجداد بين الفأر والإنسان مع كائن وحيد الخلية، يعيش في بركة المياه الراكدة، ولو استفسرتهم من أوجده؟ لأجابوا الصدفة الطبيعية[3]، فالافتراض الذي طرحه التطوريون من أن التغذية والتكاثر "الانشطار"، حدث قبل أن تصبح الخلية حية، طرح غير مقبول بالمطلق، لأن التغذية والتكاثر من خصائص الكائنات الحية، وأن حياة الخلية تسبق ذلك، وهما عمليتان دقيقتان تحتاجان إلى ذكاء وبدوره يكون حيا، ومن الذي هداها للغذاء؟ وما تقوم به الخلية بشكل تلقائي بالتمييز بين الغذاء الضار والنافع، وفي تنفسها تأنف من الغازات الضارة، وتستنشق الاوكسجين النافع. إذن فالذي صممها، وبرمجها بمعلومات قبلية، وقدرها بمقادير دقيقة جدا، هو الذي زودها فطريا بالقدرة التمييزية بين كل هذه الأمور التي خلقها عليها، ويعجز العقل البشري أن يصممها ويستوعبها، إنه الله الخالق المبدع، هو الذي برمجها بهذه المعطيات لتميز بين ما يصلح لها، وما لا يصلح، كما أن عالم المستحتاث لويس أكاسيس "زامن فترة داروين"، اعتبر أن السجل الأحفوري وبالأخص سجل العصر الكمبيري، يشكل عقبة لا يمكن لفرضية داروين تجاوزها... وشكل الدليل الأحفوري من

[1] الدكتور جوناثان ويلز "ايقونات التطور علم ام خرافة ؟ ترجمة الدكاترة موسى إدريس وأحمد ماحي ومحمد القاضي، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2014 ص: 23

[2] أرسطو: العالم يتحكم فيه خالق أسماه بالمحرك الأول أو العلة الأولى

[3] الدكتور طالب الجنابي "نظرية التطور الداروينية: خرافة أم علم؟، دار الأضواء للطباعة والنشر، طبعة 1989ص103

العصر الكمبيري تحديا كبيرا لمزاعم داروين عن قدرة الاصطفاء الطبيعي على إنتاج أشكال جديدة من الحياة اعتمادا على الشبكات العشوائية وتوارثيتها والصراع على البقاء[1].

إن الخلية الأولى لم تكن مجرد خلية بسيطة أو بدائية، تحركت فأصبحت حية، كما تزعم التطورية، بل إنها احتوت على معلومات كثيرة، وفي منتهى التعقيد، وهذه حقيقة غفل عنها داروين، ويغفل عنها التطوريون[2]، فجميع الكائنات الحية مبرمجة بمعلومات دقيقة في بنيتها الخلوية، وهذا الصنع ليس من فعل الصدفة الطبيعية، كما تدعي التطورية، فقيمة الكائنات الحية لا يكمن فقط في تركيبتها الداخلية المجبولة عليها من خالقها، بل أيضا في البحث عن مغزاها ومعناها الحقيقي، حيث يوجد خارج هذه التركيبة، بل تمتد إلى خالقها، وهذا ما نلمسه من قولة فيتجنشتاين: "معنى العالم لابد أن يقع خارج العالم"، وأكد مايكل بيهي ثبوت عجز النظرية الداروينية عن تفسير الأسس الجزيئية للحياة، لا مقابل التحليل المقدم في هذا الكتاب فحسب، بل بسبب الغياب التام لأي نموذج مفصل يمكن من خلاله تفسير نشوء البيو–كيميائية الحديثة في الأدبيات العلمية المختصة، "الآن جاء دور العلم الاساسي للحياة – الكيمياء الحيوية المعاصرة – ليزعج الداروينية"[3]، هذه البرمجة الربانية للكائنات الحية بالتمييز الطبيعي بين الضار والنافع حاملة لمعلومات مصممة من قبل مصمم ذكي للغاية وخارقة، فليست محض صدفة،وهذا ما أكده بيهي في قوله: "نستنبط وجود التصميم، كلما كانت الأجزاء تبدو مرتبة لإنجاز وظيفة"[4]. ما خلص إليه بيهي وميلر وجوناثان ويلز وغيرهم كثير، أن التنسيق والترتيب للأعضاء البشرية وراءها مصمم خارق، وصانع ذكي، هو الخالق الصانع لكل شيء، فاحسن الصنع، ومنها الإنسان المتقن في صناعته ليؤدي الخلافة والعمارة والعبادة على الأرض، مصداقا لقوله تعالى: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** (الذاريات: ٥٦)، وبذلك فالكائنات الحية، لم تتطور من حالة إلى أخرى وبالصدفة، كما افترضت الداروينية، وخير دليل على فشل طرحها الخرافي زهرة مدغشقر الطويلة الأنبوب، والحشرة التي

---

[1] الدكتور ستيفن ماير "شك داروين:النشوء المفاجئ لحياة الكائنات وحجة التصميم الذكي"، ترجمة الدكاترة مؤمن الحسن وموسى إدريس وآخرون، مركز براهين للدراسات والأبحاث الطبعة الأولى 2012 ص: 35-39

[2] الدكتور طالب الجنابي "نظرية التطور الداروينية: خرافة أم علم؟ دار الأضواء للطباعة والنشر، طبعة 1989 ص:111

[3] الدكتور مايكل بيهي "صندوق داروين الأسود: تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور" ترجمة كل من مومن الحسن أسامة إبراهيم زيد الهبري وآخرون، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1996 ص: 192

[4] الدكتور مايكل بيهي "صندوق داروين الأسود: تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور"، ترجمة كل من مومن الحسن أسامة ‘براهيم زيد الهبري وآخرون، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1996 ص: 232

تتغذى على رحيقها، لها أيضا أنبوب طويل يصل إلى قعر أنبوب الزهرة، فبعد إجراء الدكتور ليس وفريقه تشفير الحمض النووي الشريطي، وجد أن الزهرة تتغذى عليها حشرة ذات خرطوم طويل بمقاس الزهرة، وأنها تختلف عن أبناء عمومتها بمدغشقر، ويصل طول خرطومها ١١.٢ بوصة، فلا يمكن إيجاد الزهرة بأنبوبها الطويل والحشرة بأنبوبها الطويل للتغذي عليها بنفس المقاس والحساب والتقدير الذكي بالصدفة، أو افتراض التطور التدريجي[1]، فهذه الدقة العالية في التقدير والحساب لا تصدر إلا من خبير عليم لقوله تعالى: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** (القمر: ٤٩)، ولقوله عز وجل جلاله: **مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** (الأحزاب: ٣٨).

المراجع بالعربية:

- الدكتور جوناثان ويلز "أيقونات التطور علم أم خرافة؟ ترجمة الدكاترة موسى إدريس وأحمد ماحي ومحمد القاضي، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٤
- الدكتور طالب الجنابي "نظرية التطور الداروينية: خرافة أم علم؟، دار الأضواء للطباعة والنشر، طبعة ١٩٨٩.
- الدكتور ستيفن ماير "شك داروين: النشوء المفاجئ لحياة الكائنات وحجة التصميم الذكي"، ترجمة الدكاترة مؤمن الحسن وموسى إدريس وآخرون، مركز براهين للدراسات والأبحاث الطبعة الأولى ٢٠١٢
- الدكتور مايكل بيهي "صندوق داروين الأسود: تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور" ترجمة كل من مومن الحسن أسامة إبراهيم زيد الهبري وآخرون، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٩٦

المراجع بالانجليزية:

- Jw.valentine, D. Jablonski and DH erwin «fossils, molécules and embryos: New Perspectives on the Cambarian Explosion» développement , Vol126, issue 5 – Copyright 1999.

[1] صحيفة ديلي ميل البريطانية ونشرت الدراسة بمجلة أنتنور الفرنسية